

من تاريخ الطب الاسلامي

لصاحب السعادة الدكتور قاسم غني

سفير ليراث بمصر

(تمة)

قد استنبط الأستاذ براون من بيان هذه الحالة أن ابتلاء المريض بالحُميات المخاطية مع وجود قشعريرة تتقدم الحمى كان سبباً في أن ظن الرازي في بادئ الأمر مرضه حمى (الملاريا) ولا سيما أنه كان في بلاد تنكثر فيها هذه الحمى. والحال أن هذه الأعراض لم تكن أعراض حمى الملاريا بل كانت نتيجة لمرض عفن، وإن الرازي غير رأيه عند ما شاهد المدة في بول المريض وتحقق لديه أن المرض خراج في الكلى.

والغرض من استشهدنا بهذه الحادثة هو أن نبرهن على أن الأطباء كانوا يدرسون حالة المريض وأعراض المرض درساً وافياً دقيقاً وبهذه الطريقة كان طلاب الطب يتلقون من أساتذتهم درساً عملياً تجريبياً عن الطب وعلاج الأمراض المختلفة وفي نفس الوقت كان الطبيب يداوى المرضى ويزداد تجريبه ومهارة في عمله وكان الجميع يخدمون صناعة الطب ويساهمون في ترقيتها بالدرس والبحث والتجارب المنظمة وفي القسم الداخلي من البيمارستانات عند ما كان يصعب تشخيص مرض مريض في قاعة من القاعات وتدعو الحال استدعاء طبيب أو أكثر من القاعات الأخرى غير القاعة التي فيها المريض للاستشارة كان يدمى عدد منهم فيتداولون في الأمر^(١).

وكان الأطباء يشتغلون في البيمارستان بالدوية، فخيرئيل ابن بختيشوع كانت نوبته في الأسبوع يومين وليلتين^(٢) وكانت دروس الطب تعطى على الأغلب في البيمارستانات فيجلس الطبيب لفحص المرضى ومما ينفهم فيصف العلاج اللازم للمريض ويكتب له ويشرح كيفية استدلاله على المرض للحاضرين، وكان يعين يديه المشارفون والموامل لخدمة المرضى وكان كل

ما يكتبه لكل مريض من الداواة والتعديير ونوع الطعام يوضع بجانب فراشه للرجوع إليه في تنفيذه وإجرائه.

وكان الطبيب يدور على المرضى بالبيمارستانان ويتفقد أحوالهم ويصف لكل منهم علاجه وبعد فراغه من ذلك يأتي فيجلس في مجلس خاص في البيمارستان ويحضر كتب الاشتغال وكان جماعة من الأطباء والشفتلين يأتون إليه ويقعدون بين يديه ثم يجري مباحث طبية ويقرى التلاميذ ولا يزال معهم في اشتغال ومباحثة ونظر في الكتب مدة ثم يركب إلى داره^(١).

وكانت هذه الطريقة في التدريس هي للمبتدئين من التلاميذ؛ أما المشتغلون بالطب والطلّامون على كتبه ومن لم يعض الاختبارات في البيمارستانات فكانوا يحضرون مجلس درس الأستاذ -اعات كل يوم فيجري البحث عن المواضيع الطبية المشككة أو النادرة ويتداولون فيها علمياً وفنياً بكل حرية.

وقد كان النظار في بول المريض، وكانوا يسمونه (القارورة)، والاستنتاج من نظره وسمونه (التفسرة)، من الأمور الشائعة ولم يكن الأطباء يفعلون عنه.

وكانت الأطباء العرب في هذا الباب مهارة كبيرة تدل على قوة استدلالهم وحسن استنتاجهم.

يقول ابن أبي أصيمة: (أراد الرشيد أن يمتحن بختيشوع الطبيب أمام جماعة من الأطباء فقال الرشيد لبعض الخدم: «أحضره ماء دابة حتى تجربه» فضى الخادم وأحضر قارورة الماء، فلما رآه قال: «يا أمير المؤمنين ليس هذا بول إنسان» قال له أبو قريش وقد كان حاضراً: «كذبت هذا ماء حظية الخليفة» فقال له بختيشوع (لك أقول أيها الشيخ الكريم، لم يبل هذا إنسان البتة، وإن كان الأمر على ما قلت فلعلها سارت بهيمة) فقال له الخليفة «من أين علمت أنه ليس ببول إنسان؟» قال بختيشوع «لأنه ليس له قوام بول الناس ولا لونه ولا ريحه» ثم التفت الخليفة إلى بختيشوع فقال له (ما ترى أن نعظم صاحب هذا الماء) فقال «شعيراً جيداً» فضحك الرشيد ضحكاً شديداً وأمر نخلع عليه خامة حسنة جليلة وروهب له مالا وافراً وقال «بختيشوع يكون رئيس الأطباء كلهم وله بسمون ووظيمون»^(٢)

(١) طبقات الأطباء الجزء الثاني صفحة ١٥٥

(٢) طبقات الأطباء الجزء الأول صفحة ١٢٦

(١) طبقات الأطباء لابن أبي أصيمة الجزء الثاني صفحة ١٢٩

(٢) تاريخ الحكماء للفنطى صفحة ١٤٨

أنه من أجلة العلماء . وبعد أن انتفى سنان من درسه ومعالجة
المرضى خاطب تلاميذه قائلاً : « علينا الآن بالاستفادة من فضائل
مولانا الشيخ ، ولتستمع لجوامع كله لتبقى لدينا تذكاراً لتتريفة
هذا المجلس » . ثم سأل الشيخ عن اسم أستاذه فأخرج الشيخ من
جيبه بكرة من المال وضهها أمام سنان وقال لست يا سيدي من
العلماء ؛ لكني رب أسرة أريد أن أعيلها عن طريق التطيب . فاشترط
عليه سنان أن يكون محتاطاً في عمله فلا يفصد أحداً ولا يعطى
من المسهلات إلا الأنواع الساذجة البسيطة منها . فقال الشيخ
كانت هذه ولا تزال طريقتي في التطيب فإني لم أعط أحداً غير
السكنجبين والجلاب ، فأعطاء سنان إجازة التطيب في هذه الدائرة
المحدودة التي ذكرناها .

وجاءه غداة ذلك اليوم ضمن جماعة حضرت مجلسه لأخذ إجازات
التطيب — شاب سأله سنان عن اسم أستاذه كما هي العادة فذكر
اسم أبيه ، وكان الشيخ الذي ذكرنا قصته ، فدأله سنان عما إذا
كان يسير على نهج والده . ولما رد عليه بالاجاب أجازه أيضاً
للتطيب في نفس تلك الحدود .

كان هذا في بادي الأمر لكن الحال لم تستمر على هذا النوال
وصار النظام بعد ذلك أن الطالب بعد أن يتم دروسه يتقدم إلى
رئيس الأطباء برسالة في الفن الذي يريد الحصول على الأجازة في
الاشتغال به له أو لأحد مشاهير الأطباء قد أجاد دراستها فيختبره
فيها الطبيب ويسأله أسئلة عدة عن هذا الموضوع ، فإن استطاع
اجتياز الامتحان أعطاء إجازة تطلق له التصرف في حدودها .

ويذكر المرحوم الدكتور أحمد عيسى بك مؤلف كتاب
(تاريخ البيهارستانات في الاسلام) في كتابه القيم المذكور الذي
نشرته جمعية التمدن الإسلامي بدمشق سنة ١٣٥٧ هـ محرية أنه عثر
في خزانة كتب المرحوم العلامة أحمد زكي باشا على صورتين
لإجازاتين طبيبتين من القرن الحادي عشر من الهجرة منحت
أحدهما لفصاح الأخرى لجراح (١) وهما نحن أولاء نذكر هنا
ملخصهما : —

(وهذه صورة ما كتبه الشيخ الأجل عمدة الأطباء ، ومنهاج
الألباء ، الشيخ شهاب الدين ابن الصانع الحنفي رئيس الأطباء بالبيار

والخلاصة أن البيهارستانات لم تكن أعمالها قاصرة على معالجة
المرضى فحسب ، بل إنها كانت أيضاً تقوم مقام مدارس الطب
يتخرج منها الأطباء والكحالون والجراحون والمجبرون .

وكان لكل بيهارستان خزانة كتب أو مكتبة تحوى كثيراً
من الكتب كانت في متناول كل طالب علم ؛ وكان طالب الطب
في أول عهد الدولة الإسلامية بعد أن يتلقى أصول الطب على بعض
مشاهير الأطباء ويقوم باختبارات شخصية وتجارب عملية كافية
ويجد في نفسه القدرة على مراولة الطب يباشرها بعد أن يجيزه
بعض الأطباء النابهين في زمانه أو رئيس أطباء البيهارستان الذي
كان يشغل فيه .

ولم تكن هناك في أول الأمر قيود خاصة أو امتحانات
منظمة لإعطاء إجازة التطيب ؛ وإن أول من نظم هذه الصناعة
وأخضعها لنظام خاص في تأدية امتحان للحصول على إجازة
التطيب هو المقتدر الخليفة العباسي ، وكان ذلك في سنة ٢١٩ هـ .
والسبب الذي دعا الخليفة إلى هذا العمل حسب رواية ابن أبي
أصيبعة هو أنه اتصل به أن غلطا جرى على رجل من العامة من
بعض التطيبين فأت الرجل ، فأمر الخليفة المحتسب بمنع سائر
التطيبين من التصرف إلا من امتحنه سنان بن ثابت بن قرة
رئيس الأطباء وطبيب الخليفة الخاص ، وكتب له رقعة بخطه بما
يطلق له التصرف فيه من الصناعة . وبلغ عدد من ترددوا إلى
سنان وامتحنهم وأطلق لكل واحد منهم ما يصلح له التصرف
فيه من الصناعة ثمانمائة رجل وبنفاً وستين رجلاً في جاني بتداد
سوى من استفتى عن عنته بأشهاره بالتقدم في سنته وسوى
من كان في خدمة السلطان (١) .

وكان سنان بن ثابت يمتحنهم فيسأل كلا منهم بعض الأسئلة
الطبية ويعرف معارفه ودرجة تمكنه في الصناعة ، فيحدد له حدوداً
يجيزه أن يتصرف ضمنها لا يتجاوزها .

وكانت الامتحانات الطبية في ذلك العهد بسيطة جداً فيها
كثير من التسامح والتساهل . يروي أنه دخل يوماً في مجلس
سنان بن قرة كهل موقر بهيب الطلعة عليه سبأ أهل العلم
وليامهم فأخذ مكانه في جانب من المجلس ، وكان مظهره يدل على

(١) كتاب تاريخ البيهارستانات في الاسلام صفحة ١٣٠

(١) طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة الجزء الأول صفحة ٢٢٢ .

المصرية إجازة للشاب المحصل محمد عزام أحد تلامذة الشيخ الأجل والكهف الأحول الشيخ زين الدين عبد المطلب رئيس الجراحين على حفظه لرسالة الفصد كما سنينه : -

الحمد لله ومنه أستمد العناية .

الحمد لله الذي وفق من عباده من اختاره لخدمة الفقراء والصالحين وهدى من شاء للطريق القويم والنهج المستقيم على عمر الأوقات والأزمان إلى يوم الدين . وبعد فقد حضر عندي الشاب المحصل شمس الدين محمد بن عزام ... بن ... بن ... على المؤذن الجرداني (أو الجرداءاني نسبة إلى جرداءان رهي محلة بمدينة أسبهان إيران)^(١) المتشرف بخدمة الجراح ، والتمتع بخدمة الشيخ الصالح بقية السلف الصالحين العارفين وشيخ طائفة الجراحين بالبيهارستان المنصوري وهو الشيخ عبد المطلب المشهور بابن رسلان نعمنا الله ببركاته ، ورحم أسلافه العارفين الصالحين ، وعرض على جميع الرسالة اللطيفة الشتملة على معرفة الفصد وأوقاته وكيفية وشروطه وما يترتب عليه من المنافع المنسوبة . والرسالة المذكورة للشيخ الإمام العلامة التمام شمس الدين محمد بن ساعد الانصاري^(٢) شكر الله سميته ورحمه وأسكنه بمجايح جناته بمنه وكرمه ، عرضاً جيداً دل على حسن حفظه للرسالة المذكورة ، وقد أجزته أن يرويها عنى بحق روايتها وغيرها من الكتب الطبية (وبقاى الأجازة مفقود) والإجازة الأخرى أيضاً من القرن الحادى عشر الهجرى وهى صادرة من رئيس الجراحين بدار الشفا المنصوري (قلاوون) وخلاصتها بعد حمد الله والثناء عليه والصلاة على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم والسلام على آله وصحبه أنه وقف على الرسالة الموسومة (بيرة الآلام فى صناعة الفصد والحجام) نظم لودعى زمانه وألقى عصره وأوانه ، الشمس شمس الدين القيم شهرة ، الجراح صنعة ومهرة ، التى أصلها للشيخ الفاضل حارى الفضائل الشيخ شمس الدين الشريبنى الجراح الموسومة (بنائة المقاصد فيما يجب على المنصور والفاسد) وقد قرأها عليه قراءة اتقان وإيمان فلم يرد بدأ من أن يبسطها ليتيسر حفظ تلك القوائد . وقد أجاد ناظمها

(١) لب اللباب للسيوطى

(٢) واسم الرسالة نهاية الفصد فى صناعة الفصد منها نسخة بحسرة

بدار الكتب المصرية .

فى تحميقها ، وبذل الجهد فى تحريرها وتدقيقها ... إلى أن يقول استحق راقم وشيها وناسج بردها أن يتوج بتاج الإجازة فاستخرت الله تعالى وأجزت له أن يتماطى من صناعة الجراح ، ما أتقن معرفته ليحصل له النجاح والفلاح ، وهو أن يعالج الجراحات التى تبرا بالبطن ، ويقلع من السنان ما ظهر له من غير شرط ، وأن يفصد من الأوردة ويتر الشرائين ، وإن يقلع من الإسنان الفاسد الموسين (كذا) إلى أن يقول ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا وإياه لصالح الأعمال فى كل حال ومآل .

وإمضاء هذه الإجازة كما يأتى : -

(رقمه بقلمه أحقر عباد الفتاح ، الفقير للحق على بن محمد بن محمد ابن على الجراح ، خادم الفقراء الضعفاء بدار الشفا بمصر المحروسة ومصلياً ومسلماً ومحمداً ومحوقلاً ومستغفراً بتاريخ سنر الخير من شهر سنة إحدى عشرة وألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، والحمد لله وحده)

وقد كان الصيادلة أيضاً خاضعين للرقابة فى أعمالهم يؤدون امتحاناً خاصاً قبل اشتغالهم بهذه الصناعة حتى يوثق من علمهم بالأدوية والمقاقير ، ويؤمن منغبة غلطهم فى إعطاء الأدوية والمقاقير ...

يذكر ابن أسبيمة فى الجزء الأول من مؤلفه طبقات الأطباء ضمن شرح حال ذكرى الطيفورى الطيب - وكان من مشاهير الأطباء فى زمن الخليفة المعتصم - قصة خلاصتها (أنه بينما كان الأقبشيين فى معسكره وهو فى محاربة بابك سنة ٢٢١ هجرية وكان معه ذكرى الطيفورى الطيب أمره بإحضار جميع من فى معسكره من التجار وحوانيتهم وصناعة كل رجل منهم ، فرفع ذلك إليه ؛ فلما بلغت القراءة بالقارىء إلى موضع الصيادلة قال الأقبشيين لذكرى الطيفورى (يا زكريا ضبط هؤلاء الصيادلة عندى أولى مما تقدم فيه ، فامتحنهم حتى نعرف منهم الناصح من غيره) فقال زكريا (إن يوسف لقوة الكيائى) قال يوماً للمأمون (إنما آفة الكيمايا الصيادلة ؛ فإن الصيدلان لا يطلب الإنسان منه شيئاً من الأشياء كان عنده أم لم يكن إلا أخبره بأنه عنده ، ورفع إليه شيئاً من الأشياء التى عنده ، وقال هذا الذى طلبت . فإن رأى أمير المؤمنين أن يضع اسماً لا يعرف ويوجه جماعة إلى الصيادلة

المجبرين أن يؤدوا امتحاناً في المقالة السادسة من كتاب بولس الأجايطلي في الجبر الذي قام بنقله إلى العربية حنين بن أسحق .
وأما الجراحون فكان عليهم أن يكونوا ملمين بكتاب جالينوس الخاص بالجراحات والمرام وأن يعرفوا التشريح وما يتصل به .

وكان للمحتسب أيضاً مراعاة الصيدلة بمساعدة الأطباء والمتخصصين في معرفة الأدوية والمقايير وإرشادهم .

إن وصف شتى البهارستانات التي كانت منتشرة في مختلف البلاد الإسلامية وتبيان تاريخ بنائها وأسماء بنائها وطريقة إدارة أوقافها وذكر أسماء كبار أطبائها والطلبة الذين كانوا يلتقون العلم فيها يحتاج لبحث خاص ، وقد وفي الموضوع حقّه للمرحوم الدكتور أحمد بك عيسى في مؤلفه القيم (تاريخ البهارستانات في الإسلام) وفيه يذكر رحمه الله أسماء ثمانين من هذه البهارستانات التي كانت تدار في مصر وإيران والعراق والجزيرة وسورية وجزيرة العرب وبلاد الروم أي آسيا الصغرى واسطنبول وبلاد المغرب والأندلس بتفصيل واف فليرجع إليه من أراد التفصيل فهو خير مرجع في هذا الباب .

فاسم غنى

في طلبه لتبتاعه فليعمل) فقال المأمون (قد وضعت الإسم وهو شقطيا (وهي ضيعة تقرب من مدينة السلام) ووجه المأمون جماعة من الرسل يسألهم عن شقطيا فسلكهم ذكر أنه عنده وأخذ الثمن من الرسل ودفع إليهم شيئاً من حنوته ، فصاروا إلى المأمون بأشياء مختلفة ، فمنهم من أتى ببعض البذور ، ومنهم من أتى بقطعة من حجر ، ومنهم أتى بوبر . فاستحسن المأمون نصيح يوسف لقوة واهم بأمر الصيدلة ومراقبتهم .

وبعد ذكر هذه الحكاية أشار زكريا الطيففوري على الأفشين أن يمتحن الصيدلة ، فأعجب الأفشين برأى زكريا ودعا بدفتر الأثرو سنة فأخرج منها نحواً من عشرين إسماً ووجه إلى الصيدلة من يطلب منهم أدوية مسماة بتلك الأسماء ، فبعضهم أنكرها وبعضهم ادعى معرفتها وأخذ الدرهم من الرسل ودفع إليهم شيئاً من حنوته . فأمر الأفشين بإحضار جميع الصيدلة ، فلما حضروا كتب إن أنكر معرفته تلك الأسماء منشورات أذن لهم فيها بالمقام في عسكره ونفى الباقين عن العسكر ولم يأذن لواحد منهم في المقام . ونادى النادى بنفهم وبإباحة دم من وجد منهم في عسكره^(١)

وكان من جملة وظائف المحتسب — وكانت يده مطلقة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر — مراقبة الأطباء والكحالين والجراحين والمجبرين .

جاء في كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة^(٢) وينبغي للمحتسب أن يأخذ عليهم عهد أبقرط ويخلفهم أن لا يمتطوا أحد دواء صراً ، ولا يركبوا له سماً ، ولا يذكروا للنساء الدواء الذي يسقط الأجنة ، ولا للرجال الدواء الذي يقطع النسل ، ولا يفشوا الأسرار ، ولا يهتكوا الأستار ، إلى غير ذلك من الأمور التي يجب على الأطباء مراعاتها في عملهم .

كما كان للمحتسب أن يمتحن الأطباء بما ذكره حنين في كتابه المعروف (بمحنة الطبيب) وأما الكحالون فقد كانوا يمتحنون بكتاب العشر المقالات في العين^(٣) لحنين أيضاً ، وكان على

(١) الأطباء لابن أبي أسبيعة الجزء الأول صفحة ١٥٢

(٢) نهاية الرتبة في طلب الحسبة لعبد الرحمن الشعرائي (مخطوط)

(٣) طبع هذا الكتاب لحساب الحكومة المصرية مع تعليق الدكتور

ماير هوف السنشرك الرمدى المروف .

مجموع الخفيف

يقدم

تولستوى

تتميم القرمشوخ في أرخبيل الدنيا قديم وحديثه

ثمنه ٥٠ قرشاً عدا اجرة البريد